

الظرفية والتحول والتأصيل

بقلم: شارلي. ر. تيبر

تصوروا طالباً جامعياً مسلماً يعيش فى القاهرة واسألوا أنفسكم: ما هى البيئة التى نشأ فيها والتى يعيش فيها الآن؟ تلك البيئة التى لعبت دوراً كبيراً فى بلورة شخصيته والتى تؤثر على الطروح الإنجيلية التى يجب أن توصل إليه؟ كيف يفسر هذا الطالب تلك الطروح؟ ماذ سيكون موقفه منها؟ كيف يتفاعل معها؟ إن البحث عن إجابة لهذه التساؤلات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوهر الظرفية، بالمفهوم الحديث الذى ينبغى اتباعه فى عملية التنصير.

أ- الظرفية

إن كلمة ظرفية كلمة جديدة نوعاً ما إذ يعتقد بعض الناس أنها ليست سوى مصطلح ابتداعى للمفهوم القديم «التأصيل» فى حين يصر بعض الناس على أن المصطلح الجديد يمثل مفهوماً حديثاً، وأنا شخصياً أرى أن الظرفية تشتمل على الكثير من الجوانب التى يشتمل عليها مفهوم التأصيل وتزيد عليها قليلاً، إن مفهوم التأصيل على الرغم من أنه لم يجرِ تصنيفه كمبدأ فى عملية التنصير إلا منذ قرن تقريباً إلا أنه مفهوم قديم يرجع إلى تاريخه إلى المساعى الأولى فى الكنيسة لتمكين الإنجيل من تخطى الحواجز الثقافية فى عملية التنصير، وعبر القرون واجه بعض الأشخاص مثل أوغستين ومانيو ريكاى وريبرتو دى نوبيلى مشاكل مشابهة للمشاكل المعاصرة قبل أن يقوم روفوس أندرسون وهنرى فين وجون نيفياس وعدد غير قليل من علماء الأجناس البشرية المشتغلين بقضايا التنصير بتصنيف هذه القضايا تصنيفاً علمياً.

إن ساحة التنصير لم تخل يوماً ما لمدرسة التأصيل وحدها فقد كانت هنالك مدارس معارضة لدعاة منهج التأصيل، ففيما ركزت إحدى المدارس على إبلاغ الإنجيل أكدت الأخرى على «نقاء» الإنجيل المدرك من خلال مصطلحات افتراضية، وفيما سعت المدرسة الأولى جاهدة لتوصيل معطيات الإنجيل مركزة على جوانب الاحتكاك والاستمرارية بين الإنجيل والثقافة القائمة، ركزت الأخرى على نقاط الخلاف وعدم الاستمرارية، وكلما حاولت الأولى أن تجعل عملية التنصير عملية سهلة مستفيدة من

التمزق الثقافي والاجتماعى ركزت الأخرى على التغير الجذرى، وقد برهنت التجربة على أن الجهود التى بذلها معارضو منهج التأصيل هى التى باءت بالفشل ويعزى ذلك إلى أن المعارضين قد درجوا على نشر مفاهيمهم الثقافية بسداجة مفرطة بدعوى أن لا فرق بين هذه المفاهيم وبين أسلوب الحياة النصرانية، وقد أدى ذلك إلى سوء فهم رسالتهم التى اعتبرها الناس غريبة عليهم ولا تمت إلى حياتهم بصلة.

ويتضح من ذلك أن أسلوب التأصيل كان خطوة فى الاتجاه الصحيح ولكنه لم يوصل إلى الهدف الأساسى وبخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ظروف القرن العشرين بجديّة أكثر، وهذا يدعونى إلى القول بأن منهج الظرفية يوسع مفهوم التأصيل ويصحح مساره على النحو التالى:

١- اتجه مفهوم التأصيل إلى التركيز كلية على الأبعاد الثقافية للتجربة الإنسانية وذلك باستخدام المفاهيم والرموز والموسيقى والطقوس الدينية والفن المعماري وإنماط التنظيم والقيادة... إلخ، وعلى الرغم من أن منهج الظرفية لا ينكر أهمية هذه الأبعاد إلا أنه يرى أن المحيط الإنسانى الذى يخاطبه الإنجيل يشمل أيضاً المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية: الثروة والفقر والقوة والضعف، والحرية والاضطهاد. إن ردود الفعل لدى البشر ليست مشروطة فقط بثقافتهم بمعناها المحدود ولكنها تتأثر بمشاعرهم نحو المستوى المعيشى والحرية والكتب وقيمتهم كبشر، وبالإضافة إلى ذلك فإن معطيات الإنجيل والطريقة التى تعرض بها تعتمد أساساً على هذه التساؤلات ولنتذكر بأن المسيح لم يدع رد البصر إلى المقعد وإنما إلى الأعمى.

٢- درج منهج التأصيل على تعريف الثقافة بمصطلحات تقليدية جامدة مركزاً على جوانبها المختلفة وتاركاً الفرصة للإنجيل لأن يعمل من حولها دون تفاعل حقيقى معها إذا لم يكن هناك فهم كافٍ لمرونة الثقافة وتقلباتها، ولكن هذا المفهوم الجامد للثقافة والمكيف وفقاً لمتطلبات الماضى لم يعد قادراً على التفاعل فى عالم متغير بسرعة مذهلة، ولهذا أصبح من الضرورى أن لا يثبت بجذور الثقافة القديمة فقط بل من اللازم علينا رعاية الأزهار الحالية وثمار المستقبل، وهذه النظرة تستوجب منهجاً للتصوير يكون قادراً على فهم التغيرات الثقافية على أنها عملية دينوية واسعة تحلل على ضوءها التغيرات التى يحددها الإنجيل.

٣- درج المنهج التأصيلى على اعتبار الأنظمة الاجتماعية - والثقافية أنظمة مغلقة قائمة بذاتها بمعنى أن المجتمع كان متكوناً من الجماعة القبلية الصغيرة المعزولة عن المؤثرات الخارجية، ولكن الواقع سواء كان هذا جيداً أم لا فإنه يبين أن تلك المجموعات الصغيرة قد بدأت تتلاشى من الوجود بفضل الاتصال المباشر بين الناس أو من خلال وسائل الإعلام.

ففى عالم اليوم تقوم بين المجتمعات علائق التجارة والحروب والاستغلال ضمن نظام اقتصادى سياسى واسع يشمل العالم بأسره، ولهذا فإن تصورنا لنموذج معين يجب أن يأخذ فى الاعتبار هذا النظام الشامل وآثاره المتباينة على الجماعات والمجتمعات والأمم المختلفة، إن الكثير من الأمراض السياسية والاقتصادية والثقافية تنتشر فى الدول الفقيرة إضافة إلى فساد وخمول هذه الشعوب التى تدعى الدول الغنية. وطالما أن المنصرين ينطلقون دائماً من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة يجب على الإنجيل أن يتعامل مع هذا النظام العالمى، وإلا فسوف يساء فهمه وسيعتبر غير ملائم أو مشبوه أو فاسد خاصة فى المجموعات الفقيرة التى تمثل الجانب الأدنى من العالم، ويوضح أكثر فإن نظرة الناس إلى المنصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموقفه الشخصى من السياسة الخارجية لبلاده وبالنشاطات التى تقوم بها مؤسساتها وبالتالي تؤثر على مصداقية الرسالة التى يدعو إليها.

٤- إن الافتراض السائد هو أن التأصيل كان يعنى الأحداث التى وقعت «هناك» فى ميدان التنصير دون أى اعتبار لعلاقة الإنجيل بالمجتمع والثقافة الذى ينتمى إليهما المنصر، وكل ما يعنيه هذا هو أن ثقافة المنصر ليست للتصدير. والحقيقة فإن منهج التأصيل ينطلق من نظرة متفائلة وضعيفة التمييز أكثر مما يجب تجاه كل ثقافة فى وسطها ويرى الشر فقط فى فرض ثقافة أجنبية على المجموعات فى «ميدان التنصير»، وقد أخذت هذه النظرة الغربية صفة واقعية غريبة بفضل استمرارية إرساليات التنصير بالعمل فى تلك الميادين وكذلك بسبب المشاكل الحقيقية التى خلقها الاستعمار هناك، ولمنهج الظرفية تصوران إضافيان آخران وهما أن مظاهر الخير والشر واضحة فى جميع المجتمعات الدينية المتعارضة هى التى تسبب العديد

من المشاكل للكنائس فى الغرب التى لا تختلف عن المشاكل المعروفة فى أى مكان آخر، ولهذا ينبغى مواجهتها بنفس المواقف والأساليب.

٥- اتجه منهج التأصيل بصفة عامة للتعامل مع المسائل السطحية مثل «أسلوب التعبير» الإنجيلى باعتباره «واحدًا» فى كافة البيئات، ولكن منهج الظرفية يرى -على الرغم من علمه التام بأن رسالة الإنجيل رسالة عالمية - أن هذا البعد الشامل أكثر بعداً عن المستوى السطحى للتعبير الشفهى والرمزى مما درج الناس على الاعتقاد به، إن أى لغة هى فى الأصل جزء لا يتجزأ من ثقافة معينة وتستخدم فى سياق معين من العسير اختصاره، وهذه التصورات تمهد الطريق لاتباع مداخل عدة ومختلفة التنصير واللاهوت أكثر من ذى قبل.

٦- وأخيراً - وعلى الرغم من أن أسلوب التأصيل كان يهدف إلى وضع المسؤولية والسلطة والمبادرة فى أيدي النصارى المحليين فإن هذا تم فقط فى جزء من حركة التنصير وهو نشاط الكنيسة المحلية، أما العمليات الأكثر تعقيداً مثل بناء المستشفيات والمدارس الرئيسية فقد كانت تصمم وتدار من الخارج، وفيما عدا ما أثاره عدد قليل جداً من المنظرين فى مجال التنصير، فإن أحدًا لم يتساءل على الإطلاق فيما إذا كان التصور الكافى وراء هذه الجهود تصوراً سليماً، ونتيجة لذلك انتشرت الأنماط الغربية برمتها وترجع الغربيون على مواقع المسؤولية مما أدى إلى الاستياء والامتناع فى ساحات العمل المحلية.

وعليه فإن أسلوب الظرفية هو محاولة للاستفادة مما حققه أسلوب التأصيل وتصحيح أخطائه وانحرافات وسد ثغراته. كما أن الظرفية تعنى بذل الجهد لفهم كل بيئة معينة على مستوى الفرد والجماعة ككل وتشخيص أبعادها الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى تنضج الرسالة الإنجيلية التى تلائم الناس فى تلك البيئة، وهذا يتطلب تحليلاً تجريبياً عميقاً للبيئة والظروف التى يعيشها الناس بدلاً من الأحكام المسبقة، إن الظرفية لا تشغل نفسها بملائمة الإنجيل «للأديان» عامة بل تركز على ملائمة لدين معين وكما يفهمه ويمارسه أناس معينون أو شخص معين. كما أن الظرفية لا تكتفى بالنظر إلى علاقة الإنجيل

بالإسلام وملائمته بصورة مجردة إلى علاقته وملائمته لكل شعب من شعبات الإسلام عن طريق التساؤلات الآتية مثلاً: ما المفاهيم والرموز الشائعة في هذا الدين والتي يمكن استخدامها مدخلاً للإنجيل اقتداءً باستخدام الرسول بولس للإله الإغريقي «المجهول»؟ ما التبصر الحقيقي الذي يكتسبه الإنسان من هذا الدين عن شخصية الرب وعن نشاطه وإرادته؟ ما الثغرات والأخطاء والتحريفات التي ينطوى عليها هذا الدين؟ ما العقبات التي يضعها هذا الدين في طريق فهم رسالة الإنجيل؟ واستناداً إلى مثل هذا التحليل يسعى أسلوب الظرفية إلى اكتشاف المعطيات الإنجيلية التي تلائم أناساً معينين، وبمعنى آخر فإن الظرفية تسعى إلى الاقتداء بالمسيح الذي ينجح في تقديم الإنجيل بصورة تناسب احتياجات كل إنسان والظروف المحيطة به، ومن هذه الناحية فإن الإنجيل قابل لأن يستخدم بعدة أساليب وبتعابير مختلفة: فالإنجيل مثلاً يخبر الأعمى أن يسوع قادر على أن يرد له بصره ويبلغ المقعد أن يسوع يمكنه من المشي وأنه يحرر البشر من الذل والفقر والجشع وعبادة المال، إن العنصر الموحد في كل هذه التعابير هو عناية الرب لرد الضالين والمعزولين إلى الطريق التي يقودهم إلى ملكوته وهذه العناية هي جوهر الأحداث التاريخية المتمركزة حول حياة يسوع الناصري.

ب- البيئة الإسلامية

لعله من المفيد أن نذكر بعضاً من الأبعاد الخاصة بالبيئات الإسلامية والتي يجب على إرساليات التنصير أخذها بجديّة.

١- هنالك البعد التاريخي الذي يأخذه المسلمون بجديّة أكثر من الغربيين، وخاصة الأمريكيين الشماليين، فتاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية يرجع إلى ظهور الإسلام، كما أن بعض المناطق من العالم الإسلامي لها تواريخ خاصة ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام، والإسلام من ناحية مهمة هو عبارة عن ردة فعل كامنّة لفهوم محمد لليهودية والنصرانية والديانة التقليدية لدى العرب، ولتساءل: ما مفهوم محمد للنصرانية؟ وما العقبات التي تبحث عن هذا الفهم والتي يمكن اجتيازها بهدف إيصال فهم أكثر دقة؟.

إن تاريخ العلاقة بين الإسلام والنصرانية تاريخ حافل بالحروب التي لم تنقطع، فهناك فتوحات المسلمين في شمال إفريقيا وإسبانيا والحروب الصليبية والحروب التي دارت بين الطرفين في العصور الوسطى وفي عصر النهضة في وسط وشرق أوروبا والتوسع الاستعماري للقوى «النصرانية» الغربية داخل أراضي المسلمين، هذا بالإضافة إلى المواجهات الراهنة حول الصهيونية ولبنان والنفط، وعبر هذا التاريخ الطويل تصرف «النصارى» بصورة لا تمت إلى تعاليم النصرانية بصلة وكان لتلك التصرفات أثرها في تشويه رسالة الإنجيل وإحباط مراميها، وبالطبع فإن كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي له تجربته الخاصة في هذه المواجهات، فتجربة الجزائر مثلاً تختلف عن تجربة أفغانستان. وإن مظاهر الثغرات العرقية والقومية قد جعلت النصارى الغربيين يحتقرون الثقافة الإسلامية متجاهلين أن الثقافة الغربية مدينة للثقافة الإسلامية التي يمكن علماؤها من حفظ تراث العصور القديمة وترجمته للأجيال المتعاقبة بالإضافة إلى إسهامات المسلمين الأصلية في الرياضيات والعلوم.

إن تاريخ التنصير في أراضى المسلمين تاريخ طويل متقلب واضح يرجع على الأقل إلى زمن رامون لول، والإسلام نفسه عقيدة تبشيرية عدوانية نجحت عبر التاريخ في ضم العديد من الشعب، ونتيجة للتفاعل بين الإسلام «الأصيل» وبين البيئات المحلية المختلفة ظهرت أمور جديدة واسعة تجدها في الإسلام المعاصر، كما أن تاريخ الاحتكاك الطويل بين المسلمين والنصارى جعل المسلمين يشعرون بأنهم يفهمون النصرانية على حقيقتها كما أن سلوك وتصرفات النصارى أنفسهم بصفة عامة لم تعط الرسالة النصرانية حقها.

وإذا عدنا إلى الطالب المصرى الذى سبق ذكره أعلاه نرى أن واقعه التاريخى يشتمل على فخر عظيم بالآثار المصرية وبإنجازات إسلامية فى الفترة التى كان فيها أجدادنا برابرة يعيشون فى الأدغال فى شمال أوروبا، هنالك ذلك التاريخ المحدد لوجود كنيسة نصرانية أقدم من الإسلام والتى تقلصت إلى أقلية لها لغة خاصة وثقافة تختلف عن الثقافة الإسلامية التى تحيط بها، وطريق التعايش المقبولة والمعمول بها هى أن الناس هم مسلمون أو نصارى بالولادة أو عن طريق الاندماج

الاجتماعى الأولى وأن كلا الطرفين - وخاصة النصارى - لا يسعيان إلى تحويل الآخرين عن دينهم، وهكذا فبالنسبة لهذا الطالب المصرى، فإن النصارى الأقباط وبدرجة أكثر أولئك الذين تحولوا إلى النصرانية بتأثير المنصرين الغربيين هم عينات أجنبية.

٢- هنالك أيضاً المحيط الدينى- الثقافى، قد نحاول أن نفرق بين المحيط الدينى والمحيط الثقافى ولكن مثل هذه المحاولة ستؤدى إلى تشويه سمة جوهرية فى الإسلام، وأستطيع فقط أن أذكر بعض الجوانب الخاصة بهذا الواقع فى شكل أسئلة:

أ- هل أن منزلة الإسلام كدين «الكتاب» تعقد عملية الشهادة النصرانية أم تيسرها وبأية وسيلة؟

ب- كيف يمكننا الاستفادة من نظرة الإسلام تجاه وحدانية الرب وسموه؟ كيف يتسنى لنا التغلب على قناعة المسلمين بأننا نؤمن بثلاثة آلهة؟

ج- كيف يمكننا الاستفادة من المكانة الجليلة التى يتمتع بها يسوع فى الإسلام لنجعلها نقطة انطلاقنا لإقناع المسلمين بصحة ما يرويه الإنجيل عنه؟ كيف يمكننا التغلب على النصوص القرآنية التى تكذب بعض الأجزاء المهمة من رؤية العهد الجديد؟ هل يمكن أن نحدث الناس عن الحقيقة الواردة فى المعنى الإنجيلى المجازى «ابن الرب» دون أن نستخدم التعبير ذاته لكى نتخطى سوء الفهم المتأصل فى هذه العبارة.

د- هل يمكننا التغلب على نزعاتنا الرامية لتشويه المثل الإسلامية استناداً إلى ما نلاحظه من قصور فى ممارسات المسلمين ونستفيد من التطابق الذى نجده بين المثل الإسلامية والمثل النصرانية وبذلك نتمكن من دعوة المسلمين للإيمان بيسوع المسيح؟

هـ- هل نستطيع مساعدة الكنائس التى تحيطها أغلبية إسلامية على التغلب على المشاعر التى تسودها كأقلية؟ هل يمكننا العمل نحو مفهوم للتنصير لا يقود إلى اعتبار المنتصر خائناً لمجتمعه وثقافته مما يؤدى إلى عزله تماماً.

و- ما الطرق البديلة لأساليب المواجهة فى أقوالنا والشعور وكذلك الشعور بالانتصار تلك الأمور التى يلاحظها المسلمون كثيراً فى مواقف النصارى؟ ألسنا فى

حاجة ماسة لاستصلاح الأرض فى مواقع التنصير قبل أن نبدأ الحرث والزرع والرى ثم الحصاد؟ أليس من المؤمل أن يكون أسلوب الحوار البناء والاحترام المتبادل أكثر فائدة من الأساليب التقليدية؟

٣- الواقع الاقتصادى والسياسى الراهن: من ناحية أولى ما أثر الاختراق الذى حققته الدول المنتجة للبتروى والذى قاد إلى شعور بالتعالى على التنصير؟ ومن الناحية الأخرى ما موقفنا من الفقر فى بنجلاديش ودول غرب إفريقيا المسلمة؟ كيف يمكننا التغلب على مشاعر الشك التى يقابل بها المسلمون المعونات والمساعدات النصرانية؟ هل من الممكن تقديم هذه المساعدات بطرق واضحة غير مريبة ليست فيها بنود سرية ولا يشتم منها أى تهديد أو محاولة للسيطرة؟ كيف يمكننا أن نفصل أنفسنا عن مواقف الحكومات الغربية من النزاع الإسرائيلى- الفلسطينى؟ وأهم من ذلك كيف يمكننا أن نتفادى الاعتقاد السائد بين المحافظين من النصارى بأن قيام دولة إسرائيل إنما هو تحقيق وعد الرب لإبراهيم- ذلك الاعتقاد الذى يبرر جميع تجاوزات إسرائيل على أنها تحقيق لتلك النبوءة؟ ما الوسيلة التى نتجاوز فيها سيطرة الضمير الغربى السيئ فى التعامل مع اليهود على حساب الفلسطينيين؟ .

أما بالنسبة للطلاب المصرى الذى سبقت الإشارة إليه فإن محيطه السياسى- الاقتصادى يشتمل على اعتبارات كثيرة مثل الفقر والانفجار السكانى وفرص العمل المتاحة وموقفه من حكومة السادات . . . إلخ .

ج- التنصير الظرفى

انطلاقاً من الحقائق المذكورة أعلاه ما الأمور الملحة التى تحتم اتباع منهج سليم للتنصير بين المسلمين؟ .

إن الشرط الأساسى فى نظرى هو أن نتوب من طبيعة علاقتنا (الغريبة النصرانية) التاريخية والحالية مع العالم الإسلامى، وإذا لم نخط هذه الخطوة فإننى لا أرى جدوى من التقدم إلى الأمام. ولن يفيدنا هنا التنصل من مسؤوليتنا عن الجرائم البشعة التى ارتكبتها الصليبيون ضد المسلمين ولا عن الإرهاب الصهيونى

ضد الفلسطينيين . فالاعتقاد السائد بين المسلمين هو أننا نشترك فى المسؤولية عما ارتكبه أسلافنا وحلفاؤنا أبناء جلدتنا إذا لم نشجب تلك الأعمال ونتصرف بطريقة مختلفة عنها، إن الظرفية تلزمنا أن نبدأ العمل وفق شروطهم وليس وفق شروطنا، وبمعنى آخر فإن الموقف يتطلب منا أن نرتكب عن عمد أنواعاً من أعمال «الخيانة» لأمننا ومجتمعاتنا، علينا أن نتخلى عن الروح الانتصارية وأن نكون أكثر احتراماً وحساسية للمسلمين ولعقيدتهم وطريقة حياتهم، فالتنصير الذى يتسم بأى موقف مغاير إنما يشوه الكتاب المقدس ويسىء إليه .

علينا أن نأخذ بجدية وجهة نظر المسلمين نحو احتياجاتهم المحسوسة والطريقة التى يعبرون بها عن هذه الاحتياجات ولتساءل: ما تصورهم لأسلوب حياتهم وطموحاتهم للعوامل التى تؤدى بهم إلى الإحباط؟ ما هو تصورهم الخاص لضياح وغربة الإنسانية؟ وبمعنى آخر علينا أولاً الإصغاء إليهم ومن ثم نستطيع مخاطبتهم انطلاقاً من تصوراتهم الشخصية لهذه المسائل وتدرج بهم إلى فهم شامل للكتاب المقدس، لماذا نتوقع أن يصغى إلينا الناس إذا نحن لم نتعامل معهم وننظر إليهم بجدية؟ .

عندما نتحلى بهذه المواقف الثورية الأساسية سيكون فى مقدورنا أن نكتشف عبر الحوار البناء مع المسلمين الحقائق التى يخاطب بها الكتاب المقدس هؤلاء الناس والكيفية التى يمكن أن تصاغ وتعبر بها هذه الحقائق، نستطيع أن نتدارس معهم أفضل السبل لعملية التبليغ ومن ثم نحدد النقطة التى يتم فيها طرح التحول علناً، ونستطيع كذلك أن نتدارس معهم المؤشرات العريضة لإيمانهم بالمسيح .

عندما يجلس المتحولون إلى النصرانية جنباً إلى جنب يتدارسون الكتاب المقدس ويمثلون لأوامره، وعندما تبدأ شهادتهم تتغلغل محيطاً أوسع يكون هدف أسلوب الظرفية تحقيق تحويل البشر وثقافتهم ومجتمعاتهم وبنياتهم وفقاً للظروف المحلية وليس محاكاة للكنيسة الغربية، أو كصورة مطابقة لنمط المجتمع الغربى، فالهدف الأساسى هو تكوين مجتمع يدين بالنصرانية وفقاً للمعطيات المحلية المناسبة ويمثل نواة ملكوت الرب الموعودة، والسؤال الذى يطرح نفسه والذى ينبغى علينا أن نجيب عليه هو: هل لدينا الإيمان والمحبة والتواضع والصبر الذى يجعل هذا النوع من التنصير ممكناً؟ .

خلاصة تعقيبات المشاركين

كانت التعقيبات على الجزء (أ) من هذا البحث إيجابية بأغلبيتها الساحقة فقد أبدى معظم القراء إعجابهم بالتميز الواضح بين التأصيل والظرفية ورأى قليل منهم أن هذا التمييز كان اعتباطياً، ولكن الشعور الغالب هو أن المقال قد كان علمياً ومفيداً، كما يتضح من تعقيب أحد القراء الذى قال: «إننى لم أرَ طرحاً أفضل حول هذا الموضوع».

أما الجزء (ب) «البيئة الإسلامية» والجزء (ج) «التنصير الظرفى» فقد أحدثا اهتماماً أكثر وفى بعض الأحيان حظيا بمعارضة القراء. أبدى البعض تقديرهم لإصرار الكاتب على وجوب توبة النصارى عن طيبة علاقتهم التقليدية بالمسلمين وعبر بعضهم الآخر عن احترامهم وتقديرهم فقط للاقتراحات المحددة التى قدمها، وتجدد الإشارة إلى أن عدداً من الأفكار والتعابير التى وردت فى البحث كانت بمثابة علامات خطر لدى كثير من القراء، فمثلاً فيما يتعلق الكاتب على «الإرهاب الصهيونى ضد الفلسطينيين» قال أحد المشاركين: «إن دكتور تيير قد بدأ يلج ساحة الخلافات والنقاش السياسى الخطير والتى أعتقد أنها ستكون عنصراً هداماً... إن ولاء العرب للقضية الفلسطينية يعبر عنه بالكلام وأنهم فى نهاية الأمر سوف يصطدمون مع نزعة القيادة الفلسطينية الهدامة، وإذا قررنا أن ننحاز إلى العرب أو إلى اليهود فإننا سوف لن نؤدى عملنا للمشاركة فى الكتاب المقدس الذى يدعو للوفاق بين المختلفين».

كما وردت التعقيبات التالية حول حاجة النصارى الغربيين للتوبة:

- «إن الشعور بالذنب يمكن أن يكون مبالغاً فيه».
- «يجب ألا نخدع أنفسنا ونقع فريسة للشعور بالذنب، فالإسلام ليس خالياً من الذنب».
- «إننى اعترض كلية، إن الذين يبحثون عن سبب ما سوف يستغلون هذا الموضوع من الجدل أما القادرون على التفكير فسوف يعتبرونه شكلاً آخر من أشكال التواضع الغربى الذى لا يليق إلا بالمراهقين».

ووردت التعقيبات التالية حول التخلي عن «شعور الانتصار».

- «من الواجب على دكتور تيير أن يعرف «الشعور بالانتصار» مستمعيه، هل يعتقد دكتور تيير أن جميع النصارى يجب أن يركعوا ويعترفوا بخطاياهم أم أن ذلك أيضاً شكل من أشكال «الشعور بالانتصار».

وحول اقتراح الكاتب أنه ينبغي علينا جميعاً «ارتكاب مختلف أنواع الأعمال الخيانية» ورد ما يلي:

- «إننى لا أرى أية علاقة بين «أعمال خيانية» وبين التخلي عن «الشعور بالانتصار».

- «إذا كان الكتاب المقدس قادراً على تخطي الحدود الثقافية فإنه يستطيع أن يضم ثقافتنا وثقافتهم».

- «من الواضح أن فهمى للظرفية مختلف عن فهم دكتور تيير لهذا المصطلح والحقيقة أن النصرانية ذاتها لا بدّ أنها تعنى شيئاً آخر... إننا لسنا على وشك النصيحة بالاستقامة الشخصية والصمود الحق لنصاع مع هذه المناشدة، إننى لا أنصور موقفاً أكثر تطرفاً من الذى يدعو له دكتور تيير». وبصفة عامة علق أحد القراء قائلاً: «إن انطباعات الكاتب مفيدة ولكن ارتباطها بالإسلام محدوداً جداً... إن البحث يتسم بالتحيز ولهذا يمكن أن يكون مفيداً فى أى محيط عربى... ولا بدّ من أن يأتى اليوم الذى نكف فيه عن الكلام حول العمالقة ونقوم باحتلال الأرض».

من الواضح أن دكتور تيير قد أثار العديد من المسائل التى تحتاج إلى توضيح ومناقشة، والتباين فى ردود الفعل التى أحدثها البحث تتضح فى أن بعض القراء قد اعتبروا أن «جراً» البحث هى سبب قوته، بينما اعتبر بعضهم الآخر أن هذه «الجرأة» هى سبب ضعف وسقوط فى نظرهم، ومن المؤكد أن البحث، كما وصفه أحد القراء، كان «مثيراً... وأساسياً فى آن واحد».

رد الكاتب على تعقيبات المشاركين

إننى مسرور أن عددًا من القراء قد وجد بحثى مفيداً، وليس غريباً أن يبدى البعض الآخر التشكك والتساؤل، وبما أنه ليست هنالك جدوى من محاولة الرد على جميع التعقيبات فسوف أركز على خمس مسائل أثارها العديد من القراء:

١- إننى مدين لأولئك القراء الذين صححوا تفسيراتى ومفاهيمى حول بعض المسائل المتعلقة بالبيئات الإسلامية، وأود أن أوضح بأننى ركزت اهتمامى على إثارة بعض التساؤلات المختلفة دون أن أتعرض لتحليل الإسلام كدين، ويرجع ذلك لأننى لم أعش فى بلد مسلم حتى أعرف الإسلام عن كثب.

٢- لقد لامنى الكثيرون على عدم طرح خطوات محددة لمنهج الظرفية، وكما ذكرت سابقاً فإننى لست ملماً إماماً تاماً بالإسلام، وبالإضافة إلى ذلك فإن منهج الظرفية يقوم أساساً على عدم إعداد أساليب عامة بل يسعى لمعالجة كل حالة فى الوضع الذى يناسبها، ولهذا فإننى أفضل المنصر المطلع على البيئة التى يعمل فيها، على المنصر الذى يملأ رأسه بأساليب يفترض صحتها مسبقاً ويؤمن أنها كفيلة بتوفير الحلول لجميع المشاكل العارضة.

٣- لقد شعر بعض القراء بأن الفهم الصحيح للتأصيل يشتمل على كل ما أسندته للظرفية، وقد يكون ذلك صحيحاً لقليل من الناس ولكن كتابات الكثير من العاملين فى مجال التنصير وممارساتهم ممن كانوا يظنون أنهم يمارسون أسلوب التأصيل تدل على فهمهم الخاطئ لهذا المفهوم. فذوى الإحساس المرهف من هؤلاء المنصرين لم يجرؤوا على اتباع أساليب التأصيل إلا ضمناً، أما الباقون فلم يأبهوا لتلك الأساليب على الإطلاق، ولهذا أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نحث الناس على اتباع طرق واضحة بدلاً من إضاعة الوقت فى التلاعب بالألفاظ.

٤- تشدد البعض فى مناشدتى لاتباع طريقة تتسم باللين وبدون ضجة وفى استخدامى لمصطلح «حوار»، وربما كان سبب ذلك ارتباط هذا المصطلح ببرامج مجلس الكنائس العالمى المشهور، ولكن الذين يصرون على الطريقة التقليدية

الغليظة عليهم أن يبينوا قدرتها على العمل، وفي تقديرى أن الغرض من عقد هذا المؤتمر هو الإيمان بعدم فعالية الطريقة التقليدية، إن الذى ناشدت به هو أن اتباع طريقة أكثر مرونة وقائمة على احترام الآخرين سيكون أكثر فعالية فى عملية التنصير وأقرب إلى روح الإنجيل.

٥- أما الجزء الذى ناقشت فيه مسؤوليتنا الجماعية تجاه تصرفات أمننا ومجتمعاتنا والذى أوصيت فيه بأن المنصر ربما وجد نفسه ملزماً باتخاذ بعض المواقف التى تعتبر «خيانة» لسياسات بلاده القومية ومصالحها فقد كان أكثر الأجزاء إثارة للمعارضة وعدم الرضا، وقد أثار ذلك غضب الكثيرين مما جعلهم يعتقدون أننى قصدت الإساءة إليهم وحملتهم مسؤولية الحرب الصليبية، والحقيقة إن الذى قصدته هو أننا إذا ما أخذنا فى الاعتبار واقع المنظور الإسلامى (والذى بهم منهج الظرفية فى المكان الأول... أى أخذنا بجدية بيئة أولئك الذين نسعى لتبليغهم الرسالة) فإننا جميعاً مسؤولون عن أفعال أمننا أو إفرازات حضارتنا التى لا نجد فى نفوسنا الشجاعة للتبرؤ والتوبة منها، إن طريق الصليب والذى هو بالتأكيد طريق المسيح يوافق هذه النظرة أكثر من الإصرار على أن المسلمين يجب عليهم تبنى وجهة نظرنا عن المسؤولية الفردية البحتة (وبالمناسبة من الممكن إعداد دفاع جيد يستند إلى الإنجيل حول شكل من أشكال المسؤولية الجماعية).

أما فيما يتعلق «بالخيانة» فقد كنت آمل أن وضعها فى أقواس سوف لا يدع مجالاً لادعاء الشك بأننى قد استخدمت الكلمة استعمالاً مجازياً لا يخلو من مبالغة، وما لم نقف موقفاً يبرهن على أن أقطارنا نصرانية فى كل أفعالها وسياساتها ومفهومها «للمصالح القومية» فمن منا سيشعر بأنه ليس من المفروض على منصر من الولايات المتحدة (مثلاً) أن يبعد نفسه علناً عن تلك السياسات الأمريكية الشيطانية؟

